13 دعـوة القـول الطيـب

منظر جميل في كل بلـد؛ منظـر أولئـك البـسطاء المتواضـعين مـن أهـل الأرياف والقرى حين يجتمعون يوما في الأسبوع يقيمون سوقهم فيما بينهم، فيتبادلون إنتاجهم مقايضة، ويبيعون للغريب مـا جمعـوه جملـة، بـلا ميـزان مدقق أو حساب طويل، يبنون تعـاملهم وبيـوعهم عـلى النيـات البيـضاء، والحياء، والقناعة، وأسس الكرم، وشـكر الله عـلى مـا يمـنحهم مـن رزق، حتى أن أحدهم ليذهب من سوقه ليبذر بذره، فيقول مع كل حفنة حبوب ينثرها على أرضه: للطير وما قسم الله، يرى للطير حقا في كرمه.

لكن التعقيد والتدقيق إنـما يكـون في أسـواق المـدن، ونيـات التطفيـف تجدها عند كثير ممن يبيع أو يشتري من أهلها، يريد البائع أعلى ربح، ويريـد المشتري أرخص ثمن، ولذلك احتاجوا إلى الموازين واعتبروها حكما بينهم، وباتت تبعد شبهة التطفيف والمخادعة عن الطرفين، فلا تبقي أحدهما قلقا، كما أصبحت تمنع شهوة التطفيف بعد ذاك، فلا يستطيع أحـدهما التحايـل، خوفا أن يفضحه الميزان.

وأنوار الفطنة هذه التي لا زلنا نمشي في أضوائها إنما هي موازين أيـضا، ترد الشبهات وتجليها، وتبرد الـشهوات وتـسكنها إذا لـف التعقيـد مجتمـع الدعاة، واستعرت الفتن أو اقترب ظلامها، ولذلك كان ابن تيمية كثيرا مـا يصف المؤمن بأنه صاحب **" بصر نافذ عند ورود الـشبهات، وعقـل كامـل عند حلول الشهوات"**، وركز على وجوب غلق هذين البابين اللذين تقتحم الفتن منهما حصن الجماعات: الشبهات والشهوات.

لكن، لو تعامل الدعاة بالنيات، والقناعة، والتواضع، والشكر على نعمة الإسلام والانتساب للدعوة، لوهبهم الله صواب الخطو بلا تكلف، ولما احتاجوا إلى ميزان وتدقيق، ولغشيتهم السكينة التي ينام أهل الأرياف في ظلها، غير أن فيهم نفرًا يطففون.

حقيقة يجب أن نعترف بها.

لقد تعقدنا بعض التعقيد، وتركنا سمت البساطة، ومازج التكلف طبيعتنا المنسابة المنسرحة الهينة اللينة التي أودعها الرعيل الرائد فينا، ولابد من علاج بمتابعة طلب هذه الموازين الأنوار.

شبهة معترضة

ولقد وصف النور التاسع بأنه ساطع، لما للمسارة في نصيحة القادة من بريق لامع يحرم الفتن من بيئتها الطبيعية التي تتوالد فيها، ولكن ربما ظن داعية أن المسارة في النصيحة تنافي طبائع الإسلام وسمته في الحث على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ورأى في إنكار المرأة على عمر رضي الله عنه في المسجد جهارًا دليلا ينفي نورانية المسارة.

والأمر ليس كذلك عند من عرف مقاصدنا، إذ لو افترضنا صحة قصة إنكار هذه المرأة على عمر -التي يضعفها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني- وفحصنا فحواها، لما وجدنا لها علاقة بسياسة أو عقيدة أو موقف عام جماعي، وإنما تتناول أمر مهور الزوجات، أو أمر توزيع بعض العطايا على من له حق في بيت المال، في قصة أخرى تروى، فضلا عن أن العامي المجهول الذي اعترض أو المرأة المجهولة، لا يصلح عملهما أن يناهض الأدب الذي اختاره سعد بن أبي وقاص أو أسامة، وهما على ما يعرف عنهما

من الفقه والتجربة، ولا أن يكـون مـصدرًا لأصـول الـدعوة وابـن حجـر يفتيك بعد ابن عكيم بوجوب الإسرار عند خوف المفسدة.

إن نصيحة قادة العدل الذين يتحرون السير على موجب فقه الراشـدين غير مواقف العلماء الجريئة في الإنكار على الظلمـة والمبتدعـة، وإنـما نـدعو نحن إلى مسارة لا في مثل هذه الأمور التي يحتاجها الناس في أمـر معاشـهم اليومي، بل فيما يتعلق بسياسة الجماعة الداخلية والخارجية ومواقفها العامة، وفي أيام الفتنة خاصة، خوفا من استغلال أصحاب الأغراض للنقد المعلن، أو اغترار المخلصين السذج وأصحاب التجربة القليلـة بظـاهرة، إذ تـصبح النصيحة في موطن يوجد فيه مثل هؤلاء مترددة بـين مـصلحتين: مـصلحة علانية النقد، ومصلحة عدم إتاحة فرصة لاسـتغلال المغـرض أو لاغـترار الساذج به. وبين ضررين: ضرر الاقتصار على إسماع النـصيحة لنفـر قليـل فقط، وضرر الاستغلال والاغترار، فيعمل بالقاعدة الفقهية العامة في دفـع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وجلب أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وهي قاعدة أجمع الفقهاء على اعتبارها ويقرها العقل، وتوجبهـا التجـارب الوافرة في تاريخ الإسلام القديم والحديث.

بل، وإن عمر رضي الله عنه قد أسرع هو نفسه قبل غيره إلى الامتناع عن بحـث الأمور العامة أمام الجمهور الواسع الـذي قـد يـضم المغرضـين والـسذج، واقتصر على إسماع من يظن فيه الفقه والنبل فحسب، وذلـك حـين أراد أن يقوم في مكة أيام موسم الحج خطيبا ليفند لغطًا لغط به بعض الجهال حـول بيعة أبي بكر رضي الله عنه وأحداث يوم السقيفة، فقال له عبد الـرحمن بـن عـوف رضي الله عنه.

(**يا أمير المؤمنين**: لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وألا يعوها، وألا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكنًا، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على موضعها.

فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة)[1].

فها قد تضافر لدليلنا من جديد: رأي ابن عوف، وفعل عمر، رضي الله عنهما.

وهكذا الداعية: لا يضع كلامه إلا عند من هو أهل لوعيه، وليعتبر بما رأينا في الفتن، فإنها تكون أول ما تكون خفيفة، ثم يتلقف أصحاب شهوة الرياسة نقد الثقات، ويزيدون فيه عشرة أمثاله، فيكون هدمًا.

إن الداعية الفطن الكيس إن كان عنده قول يرى أن لابد من قوله لغير قادته فإنما يقوله لأهل الفقه من الدعاة وأشرافهم الذين تأدبوا بآداب السنة طويلا، ويسارر به، لا يوزعه هاهنا وهاهنا.

يسارر، أو يتحرى الحلماء النبلاء العقلاء القدماء، أصحاب الأقدام المنظورة المأثورة، ثم يسرع بعد أن ألقى التبعة نحو:

النور العاشر، وهو: الإقلال من الكلام

فإنما يسألك الله عن فصاحة قلبك لا فصاحة لسانك، ولا شك أنها مسألة نسبية مسألة اللسان، فليس أحسن وأبلغ من سكوت إذا كثر اللغط، ولا أجمل من كلام الناصح الآمر بالمعروف إذا أصلح.

---

(1) صحيح البخاري ٨/ ٢٠٩.

فالمؤمن:

(يحسبه الجاهل صميتا عيبا، وحكمته أصمتته، ويحسبه الأحمق مهذارًا، والنصيحة لله أنطقته).

وهو ذاك النموذج الذي رآه الشاعر:

ضحوك السن: إن نطقوا بخير ... وعند الشر مطراق عبوس

تكلم وسدد ما استطعت فإنما ... كلامك حي والسكوت جماد

فإن لم تجد قولا سديدا تقوله ... فصمتك عن غير السداد سداد

وهذا هو عين الصلاح الذي أراده الصالحون لكل لسان، فمن صلح لسانه عندهم، أي نطق بالخير وسكت حين الفتن: صلح عمله كله، وفي ذلك كان التابعي يونس بن عبيد يقول:

(خصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما: أمر صلاته، ولسانه).

ثم زاد فقال:

(ما صلح لسان أحد إلا وصلح سائر عمله) فهو المفتاح المبارك، ولود الخيرات، من أصلحه تفتحت فيه البصائر، وهجر الكبائر والصغائر.

الكلمة الطيبة ترفع درجات

ولذلك كثير كلام رسول الله ﷺ في بيان أهمية اللسان، وجعل سكوته في موطن الشبهة ترجمة الإيمان، فقال:

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت) وفي لفظ: **(أو ليسكت)** [1].

(1) صحيح البخاري ٨/ ١٢٥، صحيح مسلم ١/ ٥.

فقول الخير من الإيمان، حتى أن الكلمة الواحدة لترفع صاحبها درجات، كما في قول النبي ﷺ:

(إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفع الله بها درجات)[1].

ومن أجل ذلك رغب في هذه الكلمات الخيرة، فقال: **(أطيبوا الكلام)**[2].

يدلهم على باب الدرجات، وسلم العلو، إذ ليس أروع من كلمة حق منك، أو إصلاح، حين يفتتن لسان غيرك:

فإن عجز المرء: فإنه السكوت، إذ ربما تبدل الكلمة الواحدة ميزانه فيردي، كما قال النبي ﷺ:

(إن العبد ليتكلم الكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا، يهوي بها في جهنم)[3].

والميزان في هذا، هنا في الأقوال كما في الأعمال، هو قول رسول الله ﷺ:

(إذا حاك في نفسك شيء فدعه)[4].

فإن **(أكثر خطايا ابن آدم في لسانه)**[5].

فلينظر داعية نفسه، وليرفق بها، وليلزم الجمل المفيدة، وحروف البناء، وليطب كلامه، يكون طيبا، فإن نصف التربية قول موجه، وليدع حرفا

---

(1) صحيح البخاري ٨/ ١٢٥.
(2) صحيح الجامع الصغير للألباني ١/ ٣٤٠.
(3) صحيح البخاري ٨/ ١٢٥.
(4) صحيح الجامع الصغير ١/ ١٩١.
(5) صحيح الجامع الصغير ١/ ٣٨٥.

حاك في الصدر، فإن الشيطان يؤز، يحرف النفس إلى طلب انتصار وغلبة، فتكون الوخزة، والتهمة المتسرعة، والنبزة. أو يشجعها على طلب سلامة ودعة، فتكون حروف اللين.

والطريق الأقرب لهذا الرفق الطيب: أن يتشبه الداعية بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويقلده لتشمله دعوة النبي ﷺ حين دعا له فقال:

(اللهم اهد قلبه وثبت لسانه) [1].

فلم يتقلب لسان علي.

فانظر: لم يكتف حتى ذكر اللسان، وبين أن ثبات اللسان قرين هداية القلب أو نتاجها!

وإلا، فإن لنا حين نرى لسانًا قلقا لاحنا أن نتهم القلب الذي تحته بعدم استكمال الهداية، وأنه بحاجة إلى الواعظ الناصح الذي يعلمه الفصاحة في الحق، ويدق له وتدا يثبته في تيارات الأهواء.

وإنما هو نموذج دعاء حفظه الرواة فرووه لك، تعليما للغة الدعاء وتلقينا، كي تقول لأخيك يوم ترى بوادر الفتن: **(اللهم اهد قلبه وثبت لسانه)**.

تقولها بعد قولك:

(اللهم اغفر لي، ولأخي هذا).

معًا، مرة بعد مرة، كلما لقيته.

---

(1) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٣٧.

صواب القول من صواب العمل

وبهذا تكون قد أديت واجبك، وأحسنت أجمل الإحسان الأخوي.

أما فقه الدعوة، فمن واجبه أن يستمر في عرض غرر النصائح، لعل حريصا ينتفع، أو جريئا يتأنى، ليتأمل وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ يقول له:

(أقلل من الكلام، فإنما لك ما وعي عنك)[1].

أو وصية عمر الفاروق رضي الله عنه إذ يترحم فيقول: **(رحم الله امرءا أمسك فضل القول، وقدم فضل العمل)**[2].

أو وصية أبي الدرداء رضي الله عنه لما ذهب في الصراحة لأبعد منهما فقال:

(أنصف أذنيك من فيك، فإنما جعل لك أذنان اثنتان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تقول) [3].

تلك وصاياهم.

كانوا جيل جهاد وبناء، ربته المعاناة والممارسة، وصقلته الشدائد، وعرفوا من خلالها قدرة البذل الصامت على تناوش الغايات، فخافوا أن يقطع هذر ما نصرهم المسترسل في سيره.

إن اللغو شين كله، وضرره أيام التمكين ليس أقل من ضرره أيام المحن.

وعلى دعاة الإسلام أن ينطلقوا اليوم من هذه الحقيقة، فينطقوا فيما بينهم بالخير الواسع، والمعنى الكبير، والفقه المفيد، في عبارة ضيقة المبنى موجزة،

---

(1) عيون الأخبار ١/ ١٠٩.

(2) عيون الأخبار ١/ ٣٣٠.

(3) عيون الأخبار ١/ ١٧٧.

فإن الإكثار مظنة الخطأ، من غيبة، أو تهمة بريء، أو اضطرار لاستعمال دليل ضعيف، ومن وجد في نفسه بقية شوق إلى تحريك اللسان فدون القرآن، ومزيد التسبيح والحمد. ودونه مجالس الواهمين والدنيويين، يصدع فيها بحق الإسلام ما شاء.

نمط تربوي لابد منه لجيلنا، كي تتهيأ الجوارح لفضل فائض من العمل بمثله أمات عمل الفتن في جيله، فانبغت له الفتوح.

وفتحنا المنتظر رهن بطريقة عمر.

هذا، أو التردي المعاكس الذي لا يقف، بل يستمر نازلا هاويا، فإن القول والعمل مرتبطان، فإن أخطأت العمل: احتاجت نفسك إلى ستر الخطأ بخطأ من القول آخر زورًا.

ذلك ما لاحظه أحد الصالحين فقال:

(لن يضيع امرؤ صواب القول حتى يضيع صواب العمل)[1].

هكذا، في متوالية رديئة، تقدم ستر الفضيحة على قول الحقيقة، والتسويغ المدلس على التوبة والاعتذار، في ظن بعيد من الانتصار يراه قريبا، واللحن يهتك حجابه.

وذهب الصمت عرفا !

وكان نتاج ذاك الحرص الراشد على الصمت الفعال فوجا آخر من التابعين يترادفون على درب العمل ويجددون النصح التربوي بإقلال الكلام.

منهم التابعي المهلب بن أبي صفرة الأزدي حين يقول:

(يعجبني أن أرى عقل الرجل الكريم زائدًا على لسانه)[2].

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي/ ٣٧٥.

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٣٠٠.

كلمة تستوي في ظاهرها مع ما نسمع من طرف لسان أكثر الوعاظ، لكنها عند من يعرف المهلب قائدًا متحمسا لقتال الخوارج تمثل حساسية روح وخزها شذوذ الخوارج عن إجماع المسلمين، ولذعة قلب كواه تفاصحهم وتبجحهم الزائد إزاء عقل يناديهم باجتماع تتمكن معه جيوش الإسلام من مواصلة الزحف على معاقل الكفر بدل تطاحن داخلي بين طرفين كلاهما موحد.

* ثم عمر بن عبد العزيز الذي يقول:

(من عد كلامه من عمله قل كلامه) [1].

يذكرك، لعلك نسيت، أنك تحاسب على الكلام حسابا مثل الذي على عمل الجوارح.

وانظر الترابط بين مشاهدته الواضحة لهذه الحقيقة، وبين رشده وعدله وطبيعة حكمه الفذة.

حتى إن المطالع لكتب المواعظ ليكاد يرى تواطؤا بينه وبين أساتذة التربية الذين عضدوه على إقرار الإقلال من الكلام خطا تربوية للمجتمع، ومن أبرز هؤلاء: الحسن البصري، وميمون بن مهران، وعبيد بن عبد الله ابن عتبة، وبقية فقهاء المدينة.

* ونقلة قريبة إلى الجيل الذي بعدهم ترينا استمرار هذا السمت عند الثقات، ففي مرثية المحدث الثقة محمد بن كناسة الكوفي لخاله الزاهد

(1) الزهد لابن المبارك / ١٢٩.

المشهور إبراهيم بن أدهم إشادة بهـذا الخلـق وبيـان تكاملـه مـع الـصفات الإيمانية الأخرى وارتباطه بها، فيقول:

زهود يرى الدنيا صغيرا عظيمهـا وفيٌّ لحـــق الله فيهـا معظـــما

وأكثر ما تلقـاه في القوم صامتـــا فـإن قـال بـذَّ القـائلين وأحكـما

فاستـصغار الـدنيا، والوفـاء، لا يبـدو جمـالهما الكامـل إلا إذا اقترنـا بصمت.

* ثم أستاذ الزهد في الجيل التالي: بشر بن الحارث الحافي، عـضيد أحمـد ابن حنبل.

قالوا:

(ما أخرجت بغداد أتم عقلا، ولا أحفظ للسانه من بشر)[1].

فأبانوا - من وجه آخر- ارتباط حفظ اللسان بالعقـل، فهـو قـد حفـظ لسانه من اللغو، فوهبه الله لسانا جريئا في موقف صـدق إزاء أمـير خدعتـه البدعة، فكان يجوب شوارع بغداد يـوم تعـذيب الإمـام أحمـد. ينتـصر لـه، ويثبت الناس ويقود جمهور محبيه المتكتل أمام قصر المعتصم.

وهذا اللسان - لعمرو الله- هـو اللـسان الـذي يجـب أن يحـرص عليـه الدعاة، وبه يفخرون.

لسان اللهج بحديث في مسند أحمد، والترويج لعقيدة أحمد، وقيـادة مـن يقتفي طريقة أحمد وطرق من سبق أحمد ومن خلفه من أئمة الفقه والفضل، لا لسان التثبيط والتخذيل.

---

(1) تهذيب التهذيب ١/ ٤٤٥.

ورحم الله داعية أمسك فضل القول، وقدم فضل العمل.

كلمة قالها عمر..

ولم نبتدعها نحن.

* * *

14 خير يعاف الصاخبين

بذل لذيذ، ونصر يتوالى.

عنوان صادق للسنوات الأخيرة من عهد رسول الله ﷺ عكس طابعه الكامل على المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم، فتركهم يتقلبون في أنواع من الفرح غامرة، يستشعرون حمدا من أحكام الفروض والمندوبات والحرام والمكروهات ينزل به جبريل عليه السلام من السماء كل يوم، أو ينطق به النبي ﷺ فينحسر مع كل نزول ونطق خلق من الجاهلية بشع، ويكتب عليه الجلاء ويزاح، ليتاح لهم مجال أن يسألوا عن مكملات الخير الذي هم فيه.

إلا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، كان لا يقنع، فما أن يشارك إخوته من الصحابة فرحهم هذا حتى تلذع ابتسامة قلبه تخوفات من احتمالات شر مبهم يراه مقبلا، يجهل صفته وعلامته، فيظل وجلا، حتى ينعته رسول الله ﷺ ويذكر له بوادره ومقدمات التي ستنبهه يوما ما إلى الاحتياط ورفع صوته بأذان التحذير.

كان يريد علما يكمل علم الخير، فصار يحرص على أن يخلو برسول الله ﷺ يسأله:

يقول حذيفة:

(كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني) [1].

(1) صحيح البخاري ٩/ ٦٥.

فأتقن علم الشر بهذا الحرص، وأحاط خبرا بما سيكون من فتن وسوء ونفاق، حتى احتاج إلى علمه كبار الصحابة، وطفق مثل عمر رضي الله عنه يسأله ويستشيره.

والمغزى الأكبر هنا يكمن في استجابة رسول الله ﷺ لحذيفة، وجوابه له، وقبوله تعليمه علم الشر.

لم يقل له: إننا في خير، ونسير من نصر إلى نصر، فاصرف عنك الهواجس، بل أجابه وأعلمه.

وإنما تستمد نحن مسوغات تطرق بحوث فقه الدعوة لعلم الفتن والقواصم، وما ينجي منها من الأنوار والعواصم، من مواطأة النبي ﷺ لحذيفة وتزويده له بما أراد.

نتعلم علم الشر كي نراه ونميزه قبل أن يغزونا.

ففي الزمن النبوي الكريم لم تكن هناك فتنة عارمة غير فتنة النفاق التي تتابعت آيات القرآن تجزم أنها غير ضارة مسيرة الإسلام، فكان الصحابة يواجهونها وهم على يقين تام من التغلب عليها، يرونها شوكة في الطريق ليس غير.

لكن من شأن الجماعات العاملة أن يكون فيها خلاف في وجهات النظر واجتهاد متباين، وأن يندسَّ فيها الضعيف الطامع، والعدو المخرب، فأراد حذيفة أن يحتاط، فقبل النبي ﷺ احتياطه، فحدثه وشرح له، لننقل نحن لدعاة الإسلام اليوم حديثه، وحديث من شرح حديثه من فقهاء العمل، ونتأمل فيما تحقق منه ووعته الأمة تجربة من تجاربها، فنقيس عليه، ونستخلص منه العبر.

قافلة السكينة تتهادى

ومن طبيعة أنوار الفطنة أنها مستمرة الإشعاع، ولذلك نرى نور الإقلال من الكلام يرسل حِزم ضوء هادية أخرى تستهل بسبب ثان يدعو عمر بن عبد العزيز إلى السكوت، فيقول: (**إني لأدع كثيرا من الكلام مخافة المباهاة**)[1].

وهذا من أخفى الأبواب التي يقتحم منها الشيطان على الداعية، إذ تأتيه بعض البلاغة، سليقة أو تكلفا وتصنعًا، فتعجبه، فيقول من غير نية تعليم أو نصح، فلا يبارك الله بها، ولا يأبه أصحابه لها بالا، فيتعصب لها، ويجد في قلبه شيئا تجاههم يضعف مشاعره الأخوية.

❊ وتظل مسوغات الصمت الأخرى من بعد هذا تستجلب لها خيارًا آخر، كما استجلبت المهلب وبشرًا الحافي، فيقول التابعي الكبير عطاء بن أبي رباح:

(إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا ثلاثًا:

كتاب الله أن يتلوه.

أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر.

وأن ينطق بحاجته التي لابد منها).

❊ ويضرب الحسن البصري -إذ يختار لنفسه الصمت- مثلا للمفكر، والمهذار يقول فيه:

(كانوا يقولون: إن لسان الحكيم من وراء قلبه، فإذا أراد أن يقول يرجع

---

(1) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٦٨.

إلى قلبه، فإن كان له قال، وإن كان عليه أمسك وإن الجاهل قلبه في طرف لسانه لا يرجع إلى القلب، فما أتى على لسانه تكلم به)[1].

* ويتولى علم السير تعريفنا بحكيم من هؤلاء الذين عناهم الحسن، يعرض كلامه على قلبه، فلا ينطق قبل أن يعد لنفسه جوابًا.

اسمه: حاتم الأصم، زاهد قديم رأوه قليل الكلام، فسألوه، فقال: **(إني لا أحب أن أتكلم كلمة قبل أن أعد جوابها لله، فإذا قال الله -تعالى- لي يوم القيامة: لم قلت كذا؟ قلت: يا رب: لكذا)** [2].

* وعد الفضيل بن عياض كثرة الكلام خصلة من ثلاث خصال تقسي القلب، وزاد فجعله مرة أخرى علامة من علامات النفاق إذا اقترن بقلة العمل، فقال:

(المؤمن قليل الكلام كثير العمل، والمنافق كثير الكلام قليل العمل).

فطلب من حملة القرآن، من أجل ذلك، أن يقفلوا أفواههم إلا من حديث خير، فإن:

(حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو، ولا أن يلهو مع من يلهو، ولا أن يسهو مع من يسهو).

وليس أوعظ من أن يتصور أحدنا نفسه مع أولئك اللاغين المازحين من طلبة الحديث المخالفين لأعراف شيوخهم، والفضيل يشتاط غضبا وينادي:

(مهلا يا ورثة الأنبياء، مهلا يا ورثة الأنبياء، إنكم أئمة يقتدى بكم).

---

(1) الزهد لابن المبارك/ ١٣١.

(2) تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٥.

وإنها لحقيقة يذكرنا بها الفضيل يجب ألا تغيب عن بالنا.

إن مجرد حملنا للقرآن، وطلبنا للحديث يضعنا في مقام القدوة والإمامـة، ولابد من وفاء حق هذا المقام.

* ويمر بنا طريق الصمت على آخر من الزهاد اسمه:

داود الطائي، زاد فاشترى من الناس بصمته شهادة خير تنطق يوم يسأله الله، سلمه إياها ابن السماك يوم موته، في وقفة على قـبره، حـين فرغـوا مـن دفنه، فناداه أمام الجمع المحتشد:

(يا داود:

كنت تسهر ليلك إذ الناس ينامون.

وكنت تربح إذ الناس يخسرون.

وكنت تسلم إذ الناس يخوضون) [1].

فاستغفر له من حضر، فهي في يمينه حجة يوم اللقاء، وهـي في الكتـاب موعظة لأولى الألباب تحركهم إلى شراء السلامة من وريث لابن السماك.

* وعلى درب الصمت نفسه سار الجواليقي اللغوي، صـاحب إعـراب القرآن، وأحد أعيان ثقات فقهاء الحنابلة ببغداد، فكان:

(طويل الصمت، لا يقول الشيء إلا بعد التحقيق والفكر الطويل) [2].

صمت السندان!

* وتلاه الشيخ العارف عبد القادر الكيلاني، قدوة الحنابلـة بـالعراق في القرن السادس، والمربي المستدرك، فقد عرف خـبر مـن تقدمـه، ورأى أثـر

(1) تاريخ بغداد ٨/ ٣٥٥.

(2) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٠٥.

منقبتهم، ثم التفت فرأى واقعا يعبث فيه اللهو فسادًا، وبقايا أنصار البدع البويهية وفلول المعتزلة تتربص لاغتنام فرصة عودة إلى التسلط، فصار يركز في تربيته للألوف التي تحضر مواعظه على ضرورة العمل الصامت.

(أريد منكم أعمالا بلا كلام.

العارف العامل لوجه الله سندان يدق عليه وهو لا ينطق.

أرض يمشى عليها تغير وتبدل وهو أخرس) [1].

هكذا، كالأرض المعطاءة الخيرة هو الداعية، تخضر، ويعلو نباتها ويحصد، فينفع الناس؛ منهم الشكور ومنهم الكفور، وهي ساكنة راضية.

وكسندان الحداد، كتلة صلب، تنزل عليه المطرقة مرة بعد مرة، شديدة موجعة، وهو هادئ، قانع بما يحمل للناس من خير ونفع.

أو: هو كغلام الطبيب جالينوس، فقد كان جالينوس لا يعلم أحدًا، ولا يوظف مساعدًا، خوفا من شيوع أسرار طبه، فتظاهر غلام بالتخارس والسذاجة، فقبله جالينوس واختاره مساعدًا، حتى حفظ علمه على غفلة من أستاذه، فنطق.

(أما سمعت بغلام جالينوس الحكيم كيف تخارس وتباله وتساكت حتى حفظ كل علم عنده؟) [2].

وكذلك العلوم والحكم، تتعزز وتتأبى، تريد من يتملق لها بالوداعة.

* فقارن بين أرض صامتة، وسندان قانع صابر، وبين صوت أزعج الأسد، فأرسل كليلة ودمنة يستجليان الخبر، فوجداه طبلا معلقا في شجرة تحرك الريح غصنا فيقرعه، فشقاه بأظفارهما، فنام ملك الغابة مستريحا!!

---

(1) الفتح الرباني ٤٦، ٣٨.

(2) الفتح الرباني ٤٦، ٣٨.

* وليكن شعارك أن: لا لغو، ولا أصوات، بل استمتاع بأضواء بعد أضواء.

فالتفت يمينا الآن، تجد مصباح:

النور الحادي عشر، يلمع بفضائل:

*الإمساك عن الجدل

ويقال له أيضا: المراء، وهو من لوازم إقلال الكلام وناتجه، ومن مكملاته التي تتم زينه.

فالجدل خلق رديء كثير السوء، وتتجسم آثاره في الجماعات بشكل أبرز مما يلحق الأفراد منه، فإن الفرد قد لا يتجاوز أن يجد ضيقا في صدره إن تجادل مع صاحب له بمعزل وعلى انفراد، ولكن الجماعة التي يتجادل فيها اثنان، على مسمع من البقية، تحرم من الخير المقترب منها، ولو لم تتعدد فيها جهات الجدل وأعداد المتجادلين، كأن من طبيعة الخير أن يجفل من قليل الصخب، ويأبى الدخول على قوم لا يستقبلونه بسكون، ولو كانوا صالحين.

ففي صحيح البخاري:

(أن رسول الله ﷺ خرج يخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، وأنه تلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم، التمسوها في التسع والسبع والخمس) [1].

والملاحاة: هي المنازعة والمخاصمة التي تتضمن جدلا، وفي صحيح مسلم أنهما كانا: **(يحتقان)** أي يدعي كل منهما أنه المحق دون صاحبه.

---

(1) صحيح البخاري ١/ ٢٠.

وتعبيره ﷺ بعسى من باب التأويل بالمستحب، إشارة إلى ما سيكون من زيادة بذل المجهود في التماسها، وإلا فإن في الجزم بتعيين ليلة القدر من الخير للأمة الإسلامية في جميع أجيالها ما هو ظاهر لمن عرف قيمة الدعاء.

ولمثل هذا السلب جعله التابعي مسلم بن يسار جهلا يجد الشيطان خلاله مجالا، فقال:

(إياكم والمراء، فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته).

بل هي أكثر من زلة وأكثر من سوء، فإن الإمام الأوزاعي قد أحصاها فوجدها خمس زلات قبيحات تزيد طرد الخير قبحًا، فقال:

دع من الجدال ما:

يفتن القلب

وينبت الضغينة

ويجفي القلب

ويرق الورع في المنطق

والفعل

وهذا إثقال واضح لكفة الشمال من ميزان المتجادل ينبي عن خسارته والعياذ بالله، خسارة يصعب معها الرجاء إذا اقترنت بلجاجة وإعجاب، إذ تتم حينذاك، كما رآها التابعي بلال بن سعد فقال:

(إذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته).

قول خبير ليس بكاذب ولا مبالغ.

والمخرج من ذلك سهل بسيط ليس بالصعب عند الموفـق، لا يـستدعي أكثر من إغلاق وفتح.

يغلق ويقفل باب الجدل، ويرمي بالمفتـاح بعيـدًا، ثـم في حركـة سريعـة يفتح باب العمل، ليجد نفسه في إطلاله بديعة تأخـذ بمجـامع فـؤاده عـلى ألوان متموجة تفيض من مشكاة:

النور الثاني عشر، وينبعث بشعاع: المبالغة في الصدق يوم الفتنة

فإنه لا طريق أقرب من الصدق.

وحين تاب الله على كعب بن مالك رضي الله عنه لمـا افتـتن فتخلـف في الثلاثـة الذين خلفوا، قال:

(يا رسول الله: إن الله إنما نجاني بالصدق، إن من توبتي أن لا أحـدث إلا صدقا ما بقيت)[1].

فغدا الصدق من يوم اختاره كعب سنة لتوبة المفتتنين، وكفاية لاحتيـاط الحذرين.

صدقا يتجاوز مقداره العرفي الذي تدين بفضيلته كل الأمم حين يتعامل أفرادها في أسواقهم وزيجاتهم، ويتعداه، ليكون نوعا من الحساسية الإيمانيـة تستشعر الرقابة الربانية، حين ترسل الفتن المتربصة لغزونا من يوسـوس في صدورنا ويشجعنا على الانتصار لنفوسنا عند الخلاف بزيادة كلمة نتأول في إضافتها أنها تفسر كـلام المخـالف، أو بحـذف كلمـة بتأويـل مقـارب، أو باختيار لهجة لرواية الكلام تـصرفه عـن مقاصـده الظـاهرة وتحملـه مـا لا يحتمل من المعاني المعيبة.

---

(1) صحيح البخاري ٦/ ٨.

فإن انضاف إلى مثل هذه الكذبة في الزيادة، أو النقصان، أو لهجة الرواية نشر لها في المجالس، وسفر رسل صاحبها بها في الأقطار والأمصار خيف على صاحبها أن يكون ذاك الرجل الذي رآه النبي ﷺ في رؤياه المرعبة المخيفة لما أتاه آتيان فانطلقا به، فمرا به:

(على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه، فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه ، ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى.

قال: قلت سبحان الله! ما هذا)؟

قالا:

(إنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق) [1].

ورسول الله ﷺ لا يرى إلا حقًّا.

فليحذر صاحب الهوى أن يكذب كذبة ينصر بها هواه إلى حين سريع الزوال، فتبلغ كذبته الآفاق، ويحملها البريد، وتنزل بها حروف المطابع، فتزل بها أقدام، فيفعل الزبانية بشدقه ومنخره وعينه مثل ما فعلوا بهذا الذي رآه النبي ﷺ .

ولمثل هذا كان عقلاء الناس دوما يرون للصدق مكانة أرفع من مكانته التي يراها له العامة، مثل إياس بن معاوية بن قرة الذي هو من سادة الثقات ودهاة العلماء، فإنه كان يقول:

---

(1) صحيح البخاري ٩/ ٥٦.

(امتحنت خصال الرجال، فوجدت أشرفها: صدق اللسان) [1].

وإن صدقا في مساومة على شراء طعام في سوق لهوى أهون من أن يحفل به هذا النابغة هـذا الاحتفـال، لكنـه كـان يريـد معنـى وراء ذلـك، يعرفـه الرجال.

صدقا عرفه الحافظ المحدث إسحاق بن راهوية الحنظلي، فتناوله، فـأدى به إلى الإمامة وسيادة الآفاق، فقال تلميذه الإمام الدارمي:

(ساد إسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه) [2].

وثقات المحدثين الصادقين مـن أهـل زمانـه كثـير عـددهم ألـوف بعـد ألوف، لكنها المبالغة في الصدق سودت إسحاق عليهم.

والقلب الحـي يـرى في توبـة كعـب وطريـق إسـحاق مواعظًـا ودعـوة للاقتداء.

وللمفتون ما يختار.

* * *

(1) تهذيب التهذيب ١/ ٣٩١.

(2) طبقات الشافعية ٢/ ٨٦.